

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

جابهت فرنسا أزمات داخلية خطيرة في أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت تلك الأزمات الشرارة الأولى لاندلاع نيران الثورة الفرنسية ، فقد كانت فرنسا محرومة في تلك الفترة من المساواة الاجتماعية ومن الحرية الاقتصادية ومن نظام ضرائبي عادل . إذ سيطرت امتيازات العصور الوسطى على جميع نواحي الحياة في فرنسا . ومن أمثلة تلك الامتيازات امتيازات رجال الكنيسة وامتيازات النبلاء وامتيازات جمعيات الأقاليم . وقد ترتب على تلك الامتيازات إلقاء عبء الضرائب على كاهل الشعب الفقير وحرمان أبناء الطبقة الوسطى الممتازين من المناصب الكبرى في الجيش والكنيسة والقضاء .

وبينما كانت تعيش الطبقات الحاكمة والإقطاعية في بذخ وإسراف ، كان الشعب الفرنسي يتضور جوعاً ويتعرض للمجاعات من وقت لآخر .

وعندما اعتلى لويس السادس عشر عرش فرنسا عام ١٧٧٤ كانت الأزمات السابقة قد وصلت إلى الذروة ، ولم يكن الملك الجديد - الذي حرّمته الطبيعة صفاء الذهن وسرعة البت في الأمور والجد والمثابرة - الشخصية التي تستطيع التغلب على تلك الأزمات . وفور تولية لويس السادس عشر الحكم قامت أزمة مالية حادة . وفي عام ١٧٧٥ أسندت وزارة المالية إلى « ترجو » Turgot الذي كان معروفاً بأصالة الرأي ، واستطاع « ترجو » القيام ببعض إصلاحات كان من شأنها القضاء على الأزمة المالية في مهدها ، لكن لم تكن الحاشية راضية عن « ترجو » فأخذت تكيد له عند الملك حتى عزله في مايو ١٧٧٦ .

وفي أثناء تلك الفترة كان هناك فيلسوف كبير في مرحلة التكوين . وذلك هو « كوندرسيه » Condorcet الذي لم يرض عن استبداد وطغيان الإقطاعيين

ولم يعجبه نظام الامتيازات ، فأخذ يكتب المقالات في الصحف منادياً برفع الظلم وإلغاء نظام الامتيازات ، وأخذ نجمه في الصعود عندما عُيِّنَ صديقه « ترجو » وزيراً للمالية ، فقد أسند إليه « ترجو » منصب مفتش عام المالية الفرنسية .

وبعد عزل « ترجو » عين الملك « نكر » Necker وزيراً للمالية ، ورغم خبرته في الشؤون المالية ، فقد اضطر إلى الاستدانة ، ونشر « نكر » الحسابات الحقيقية للميزانية مما كشف عن المنح والعطايا المقدمة من الملك لخدمه ورجال حاشيته ، فأخذ البلاط الملكي يقاوم الوزير الجديد حتى اضطره إلى التخلي عن منصبه . وجاء بعده الوزير « كالون » الذي كان مسرفاً مما أدى إلى مضاعفة الضائقة المالية وأصبحت أخطر مشكلة في فرنسا إذ كانت تهدد بإفلاس الحكومة الفرنسية . وفي عام ١٧٨٨ أعلن الملك عزمه على عقد مجلس الأمة ، ليكون عوناً له في معالجة الأزمة ، وفي مايو عام ١٧٨٩ افتتح « مجلس الأمة » في قصر فرساي بحضور مندوبي الأشراف والكنيسة والعامّة . وكان « كوندروسيه » أحد أعضاء مجلس الأمة العاملين ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح « كوندروسيه » صحفياً أكثر منه رجل علم ، فقد اهتم بالصحافة وأخذ يكتب في صحف كثيرة منها « المكتبة العامة للإنسان » و « فم من حديد » ، وكانت تتميز مقالات « كوندروسيه » بالعمق والحماس ، وتعتبر تلك المقالات من العوامل الرئيسية للثورة الفرنسية .

وفي سبتمبر عام ١٧٩١ تم وضع الدستور الجديد بعد اضطرابات ومذابح هائلة ، وقد نص الدستور على إلغاء امتيازات الأشراف ورجال الدين واستيلاء الدولة على أموال الكنيسة ، وكان من نصوص الدستور تكوين « جمعية تشريعية » مهمتها تنفيذ مواد الدستور وحماية مكاسب الثورة ، وانتخب « كوندروسيه » عضواً في تلك الجمعية ، وبهذا المنصب وصل إلى أعلى الوظائف التي ارتقاها ،

وقد لعب « كوندريسيه » دوراً هاماً في الجمعية التشريعية ، فقد كان متمسكاً في خطبه بالحقوق الطبيعية للشعب وأهمها الحرية والمساواة .

وعندما تكون « المؤتمر الوطني » في ٢٠ سبتمبر عام ١٧٩٢ انتخبت خمس مقاطعات « كوندريسيه » عضواً فيه ، وكان يوجد في ذلك المؤتمر حزبان كبيران متعارضان هما حزب « الجيروند » وكان يجلس أبنائه في الجناح الأيمن ، وكانوا يمثلون الاتجاهات المحافظة ، وحزب « اليعاقة » وكان أتباعه من المتطرفين وكانوا يجلسون في الجناح الأيسر ، وكان يجلس في الوسط أتباع حزب « السهل » وكانوا يتبعون رأي الفريق الأقوى . أما عن موقف فيلسوفنا « كوندريسيه » فلم يكن يتبع أى حزب ، وكان عادلاً في مناقشاته وآرائه لا يناصر إلا الحق ، ولا يستجيب إلا لصوت ضميره . وعندما تقدم حزب « اليعاقة » باقتراح لإعدام الملك ، قام كوندريسيه وعارض الفكرة ، وفي تلك اللحظة عرف « اليعاقة » أن أمامهم خصماً عنيداً . ورغم معارضة كوندريسيه فقد وافق معظم أعضاء المؤتمر على إعدام الملك في ١٧ يناير عام ١٧٩٣ ، ونفذ فيه الحكم في ٢١ يناير بميدان الجمهورية وانتهى النظام الملكي بفرنسا .

وتقدم « كوندريسيه » - بوصفه عضواً في لجنة الدستور - بمشروع دستور جديد رفضه « اليعاقة » وقدموا مشروعاً آخر معارضاً لما قدمه كوندريسيه ، وأقر المؤتمر الوطني مشروع « اليعاقة » . وضائق هذا الموقف « كوندريسيه » فكتب احتجاجاً ينقد فيه الدستور الذى جاء به « اليعاقة » ، ووزع الاحتجاج على أعضاء المؤتمر الوطني ، في تلك اللحظة وجد اليعاقة الفرصة للتخلص من خصمهم العنيد ، فأصدروا أمراً بالقبض عليه في ٨ يولية عام ١٧٩٣ ، وكان قد بدأ الإرهاب في فرنسا ، واختبأ كوندريسيه عند أحد معارفه ، وفي مخبئه هذا وضع كوندريسيه أهم مؤلفاته ، وأخيراً قبض عليه ومات في السجن .

ويقول عنه العلامة « پروير » Prior :

« كان كوندريسيه آخر الفلاسفة ، فهو الفيلسوف الوحيد الذى لعب دوراً

نشطاً فعالاً في الثورة الفرنسية ، وبعد أن كان أكبر زعماء الثورة الفرنسية وأكثر رجالها تحمساً للحرية والإخاء والمساواة أصبح شهيداً من شهدائها^(١) .

وإذا انتقلنا إلى الاتجاهات الفكرية السائدة في عصر كوندورسيه ، نجد أن القرن الثامن عشر يتميز في جملته بسيادة فكرة القانون ، سواء في العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية ، وكان مونتسكييه (١٦٨٩ - ١٧٥٥ م) أول من أشار في أوروبا بأن الحياة الاجتماعية تخضع لقوانين محددة شأنها في ذلك شأن العالم الطبيعي ، ويرى أن القوانين هي « علاقات ضرورية تشتق من طبائع الأشياء » ، وقد تأكدت تلك الفكرة على أيدي جماعة « الفيزيكرات » وهي جماعة اقتصادية ظهرت في فرنسا في القرن الثامن عشر ونادت بأن الأرض هي أهم عوامل الإنتاج الاقتصادي وبأن العالم الاقتصادي يخضع لقوانين إلهية ثابتة ، ونادت أيضاً بالحرية الاقتصادية . وقد ظهر هذا الاتجاه في إنجلترا في القرن نفسه . فقد نادى الاقتصادي الإنجليزي آدم سميث - في كتابه « ثروة الأمم » الذي ظهر في إنجلترا عام ١٧٧٦ - بمبدأ القوانين العامة التي تنظم الحياة الاقتصادية ، وأهمها قوانين تقسيم العمل والعرض والطلب وحرية التجارة . ولم تقتصر فكرة وجود القوانين العامة على الظواهر الاقتصادية ، بل اتسع نطاقها حتى شملت كل مظاهر الحياة الاجتماعية . وقد تبلورت تلك الفكرة في أحد فروع المعرفة الذي ازدهر في القرن الثامن عشر وهو فلسفة التاريخ ، ويعتد كوندورسيه من أهم المؤسسين لفلسفة التاريخ . وتقوم فلسفة التاريخ على مبدئين هما :

مبدأ القانون العام : بمعنى أن حياة الإنسانية بجميع جوانبها تسير وفق قانون عام يحدد مراحل تطور المجتمعات البشرية .

مبدأ التقدم : بمعنى أن الإنسانية في تطورها وفق القانون العام تسير دائماً

Prior, O.H. L'introduction, : Condorcet : Esquisse d'un Tableau Historique (١)

des progrès de l'Esprit Humain, Bibliothèque de Philosophie, Paris

1933.

نحو التقدم ، وهو تقدم قائم على أساس العلم ومحاربة الخرافات .
وهكذا نلاحظ أن كوندريسيه خير فيلسوف يمثل القرن الثامن عشر في أوروبا
فإذا قلنا إن القرن الثامن عشر يتميز بالثورة الفرنسية ، نجد إن كوندريسيه هو
فيلسوف الثورة الفرنسية ، وإذا قلنا أن القرن الثامن عشر يتميز بازدهار فلسفة
التاريخ نجد إن كوندريسيه هو أهم فلاسفة التاريخ .
وصفة القول أننا أمام أهم فلاسفة القرن الثامن عشر الميلادى وتتلخص
أهمية كوندريسيه فيما يلي :

- هو فيلسوف الثورة الفرنسية . الذى دعا إليها واستشهد في سبيل مبادئها .
- آمن كوندريسيه بالمنهج العلمى القائم على أساس استخدام الملاحظة
الدقيقة والوسائل الرياضية سواء فى العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية ، وقد
حارب بشدة التعميمات الخاطئة والأفكار الخيالية المجردة .
- نادى بإنشاء علم جديد سماه « الرياضيات الاجتماعية » وهو خاص بدراسة
الظواهر الاجتماعية عن طريق استخدام العلوم الرياضية وخاصة الإحصاء وحساب
الاحتمالات . وهكذا أثار السبيل أمام العلماء من بعده حتى استطاعوا تحديد
المناهج الإحصائية الدقيقة لعلم الاجتماع . ويعد كوندريسيه الأب الروحى لكل
من سان سيمون وأوجست كونت .
- يعد كوندريسيه من أهم « فلاسفة التاريخ » .

- نادى كوندريسيه بنظرية جديدة فى التربية تقوم على أساس تكافؤ الفرص
بين جميع أبناء الأمة . ووضع مشروعاً للتعليم العام يهدف إلى خلق المواطن
الصالح ، وقد قدم هذا المشروع إلى البرلمان الفرنسى فى جلستى ٢١ و ٢٢ أبريل
عام ١٧٩٢ ، وكان يحوى المشروع أفكاراً تربوية ترجع لكوندريسيه وحده .
- كان كوندريسيه متفائلاً بمستقبل الإنسانية ، فرسم صورة جميلة للتقدم
الإنسانى فى المستقبل عن طريق التقدم فى العلوم المختلفة . وقد شجع هذا التفاؤل
العلماء والمفكرين على السير فى طريقهم حتى وصلوا إلى عصر الازدهار العلمى
العظيم الذى نعيش فيه الآن .

— هاجم كوندرسيه الرق وندّد بالتعصب العنصرى ودعا إلى الحرية والمساواة بين جميع البشر مهما اختلفت ألوانهم أو عقائدهم ، وأسس كوندرسيه جمعية « أصدقاء السود » التى تدعو إلى المساواة .

— آمن كوندرسيه برسالته فى الحياة وكان يتمتع بإرادة حميدية ، فنراه يكتب أهم مؤلفاته — كتابه الشهير « الملخص للعقل البشرى » — وهو فى مخبئه معرض للقبض عليه وإعدامه فى أية لحظة ، ورغم أنه كتب هذا المؤلف وهو فى أسوأ حالة تصادف أى إنسان فى الوجود إلا أننا نجد كنهه كله أمل وتفاؤل بالإنسانية وبالتقدم الذى ينتظرها فى المستقبل . لقد ألف كوندرسيه كتابه هذا وهو بين أربعة جدران بعيداً عن المراجع والمكتبات . وعندما لم يجد كوندرسيه ورقاً لكتابة بحثه استخدم أغلفة الطعام وأوراق النتيجة المعلقة فى حجراته ، وإذا تصفحنا مؤلفه الشهير لا نجد كلمة واحدة تدل على الظروف السيئة التى كان يعيشها الفيلسوف وهكذا لم يسمح لظروفه الذاتية الشخصية بالتأثير على نظرياته .

ويتضح من تلك المقدمة المختصرة عن أهمية كوندرسيه ، أننا أمام أحد نوابغ الفكر الغربى الكبار . يجب تقديمه إلى قراء العربية ، ومما يزيد من أهمية تقديمه إلى المثقفين العرب أنه درس فى مؤلفه الشهير « ملخص العقل البشرى » الدين الإسلامى والحضارة العربية وأثرهما فى النهضة الأوروبية .

وقد قسمت الدراسة إلى أربعة فصول ، يعالج الفصل الأول حياة كوندرسيه ويعرض الفصل الثانى لجميع مؤلفاته ، وفى الفصل الثالث عرض وتحليل لأهم آرائه . أما الفصل الرابع والأخير فقد اشتمل على نصوص من أقواله يصاحبها ترجمة عربية لها .

والله الموفق إلى ما فيه الخير .

المؤلف